دراسة في أبعاد العلاقة بين الهوية والمصطلح

المئذنة والمعرفة!

(١) الهوية والمصطلح: مدخل في المفهوم

من المهم جدا أن ندخل إلى قراءة أبعاد العلاقة بين الهوية والمصطلح بما هي ترجمة أو تفسير لما يمكن أن يكون رباطا جامعا بين المئذنة بما تحمله اللفظة.. الرمز من دلالات، والمعرفة ببيان موجز لمفهوم الهوية والمصطلح معا.

ومن الممكن أن نعبر عن الهوية بالماهية، فهوية أي شخص هي مجموع أمرين يميزانه عن غيره هما: اسمه، وعمقه معا.

يقول المعجم الفلسفي في شرحه مصطلح الهوية (ص ٢٠٨/١٠٨٤): إنه: «حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره».

وهو ما يدعمه جون جوزيف في (اللغة والهوية ص ١٨ ترجمة د.عبدالنور خرافي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٧م/ع ٣٤٢٩) قائلا: «يوجد مظهران أساسيان لهوية شخص ما، أولهما: اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيهما: ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدا وعمقا الذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء».

ومن هذا المعجون المعقد يجد المصطلح مساحة له ليظهر على خريطة هذه الهوية، ذلك أن المصطلح: لفظ حامل لمعنى ناتج حقل بعينه.

ويتجلى الرابط بين الهوية والمصطلح في هذا الذي يقرره د.عبدالسلام المسدى في (قاموس اللسانيات ص ١١ الدار العربية للكتاب، تونس) قائلا: «مفاتيح العلوم ومصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه».

ومن هنا فإن هذا المدخل نحو تحرير مفهومي الهوية والمصطلح يشير إلى أن الهوية بما هي عمق الإنسان وما به يتميز عن غيره، ويشير إلى المصطلح الذي هو مجمع حقائق المعارف والعلوم، وهو ما يجعله المادة الأساس في بناء كيان الهويات والأعماق للإنسان والوطن معا.

(٢) المئذنة والمعرفة.. البدايات الأولى الدالة

إن تأمل تاريخ الإسلام يقود إلى استنتاج أولي ظاهر يقرر أن الإسلام بما هو رؤية متمايزة للكون والحياة أنتج منظومة لغوية اصطلاحية موجهة لهذه الرؤية، ومؤسسة لها معا.

وهذا الذي نقرره أمر مستقر في بنية الأدبيات العلمية في مجال اللسانيات أو فقه اللغة في نسخته التراثية العربية، وهو ما يبدو واضحا في الباب الذي عقده ابن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي في فقه العربية وسنن العرب في فهارسها، ص ٧٨ تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٧م) بعنوان: الأسباب الإسلامية: «كانت العرب في


أ.د.خالد فهمي

جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت».

ويزيد ابن فارس الأمر وضوحا عندما يقرر أن التصور الجديد الذي أوجده الإسلام ظاهره وصاحبه جهاز اصطلاحي كاشف عن حقيقته، فيقول (ص ٨٣): «فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا، وكذلك الإسلام والمسلم، إنما عرفت منه إسلام الشيء، ثم جاء الشرع من أوصافه ما جاء.. ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: «فسقت

أستاذ اللغة العربية بجامعة المنوفية

الرطبة»: إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق: الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه» وهكذا.

وهذا الذي أطلنا نقله من ابن فارس اللغوي السني ليس صوتا فريدا في تاريخ فقه اللغة العربية التراثية، وإنما هو صوت متواتر ممتد يشكل اتجاها وحقيقة قائمة راسخة وقف أمامها أبوحاتم الرازي في كتابه (الزينة في الكلمات الإسلامية) والسيوطي في كتابه (المزهر في علوم اللغة) وغيرهما.

واستقرت حقيقة علمية في اللسانيات المعاصرة في دراسات الدارسين والمؤرخين للعربية من العرب وغير العرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، بحيث يصح من جانبنا أن نقرر أن ثمة إجماعا على أثر الإسلام في تأسيس قائمة طويلة من المصطلحات الكاشفة عن رؤيته للحياة والكون، عرفت باسم جامع في هذا الحقل العلمي باسم «الكلمات الإسلامية العربية».. استقرت في بنية معجمه، وعرفت طريقها إلى معاجم الشعوب الإسلامية غير العربية.

وهذا التنبه إلى أثر التصور الإسلامي في المعجم المختص في اللسان العربي هو ما يترجم توجيه المئذنة لتاريخ المعرفة في الحضارة العربية.

(٣) الوعي بالعلاقة بين الهوية والمصطلح في تراث المعجمية الاصطلاحية العربية

عرف تاريخ المعجمية الاصطلاحية عددا كبيرا من المعاجم المختصة في المجالات المعرفية المختلفة، تبرهن على الجهد العلمي الضخم الذي بذله العلماء المسلمون، وتوالى ظهور معاجم المصطلحات المتعددة العلوم في تاريخ العلم عند العرب من القرن الرابع الهجري.

وقد وصل إلينا من هذه المعجمات التي جمعت مصطلحات العلوم المتنوعة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية منذ ذلك التاريخ الباكر ما يلي:

١-مفاتيح العلوم، للخوارزمي الكاتب، ت ٣٨٧هـ.

٢-الحدود والفروق، لابن هبة الله الطبيب، ت ٤٩٥هـ.

٣- التعريفات، للجرجاني، ت ٨١٦هـ.

٤-مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المنسوب للسيوطي، ت ٩١١هـ.

٥- التعريفات والاصطلاحات، لابن كمال باشا، ت ٩٤٠هـ.

٦-التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ت ١٠٣١هـ.

٧- الكليات، للكفوي، ت ١٠٩٤هـ.

٨- كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي ١١٥٨هـ.

٩- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون.. دستور العلماء، للأحمد نكري، ت١١٧٣هـ.

وقد اتضح من تأمل مادة هذه المعجمات جميعا وعي أصحابها بأن ما تضمنته معاجمهم من مصطلحات يعد بمنزلة مفاتيح لفهم ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وهو ما صرح به غير واحد من هؤلاء في مقدمات هذه المعجمات، على ما نرى ذلك صريحا

ثمة إجماع على أثر الإسلام في تأسيس قائمة طويلة من المصطلحات عن رؤيته للحياة والكون

في مقدمة المناوي لمعجمه التوقيف على مهمات التعاريف.

ويظهر من مجموع المصطلحات التي ضمتها هذه المعجمات وتوزعها على ما يلي:

حقل مصطلحات العلوم الشرعية.

حقل مصطلحات العلوم العربية.

حقل مصطلحات العلوم الحكمية (التجريبية أو الأجنبية).

الوعي بهيمنة الشريعة الإسلامية وتوجيهها للجهاز الاصطلاحي للعلوم في الحضارة العربية الإسلامية، والنظر إلى العلوم العربية والحكمية باعتبارها علوم وسائل وآلات للتمكن لتنفيذ الشريعة والقيام بها.

وهذا الذي نقرره من أمر ظهور العلاقة بين الهوية المؤسسة على التصور الإسلامي للكون والحياة وبين المصطلح الناطق بهذا التصور جاء الاعتراف به نظريا في الأدبيات اللسانية التراثية كما مر بنا هنا، وجاء البناء عليه تطبيقا في المعجمات الاصطلاحية المتعددة العلوم.

وقد تجلى أمر توجيه الإسلام للمصطلح في اللسان العربي من الناحية التطبيقية في معجمات المصطلحات المتعددة العلوم التي رتبت مداخلها موضوعيا أو علميا، حيث افتتحت هذه المعاجم جميعا بأبواب لشرح معاني مصطلحات العلوم الشرعية أولا بما هي غاية، ثم توالت بشرح معاني مصطلحات العلوم الأخرى عربية وحكمية بما هي وسيلة وآلة. وهذا الذي نقرره ظاهر في ترتيب المعاجم التالية:

أ- مفاتيح العلوم للخوارزمي.

ب- مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، والمنسوب للسيوطي، حيث رتبا معجميهما مبتدئين بتعريف مجموعة المصطلحات المنتمية للعلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها.

وهي العلامة التطبيقية الدالة على هيمنة الشريعة وتوجيهها لحركة المصطلحات في اللغة العربية.

(٤) تنامي الوعي بالعلاقة بين الهوية والمصطلح في العصر الحديث

والمتابع لحركة المجتمعات العربية المعاصرة يقف على عدد من العلامات الدالة على تنامي الوعي بالعلاقة بين الهوية والمصطلح بما هو مخزن للمفاهيم في العصر الحديث.

وقد اتخذ هذا الوعي مسارات متعددة يمكن إجمال أهمها فيما يلي:

أولا – حرص حركات التحرر الوطني جميعها على امتداد خريطة الوطن العربي على تعريب لغة الحياة، وتعريب لغة العلم.

ثانيا – الحرص على النص في دساتير الدول العربية على عروبة لسانها بما يعد أحد أهم مقومات هويتها.

ثالثا– ظهور حرص الرواد من العلماء في مجال العلوم التجريبية والتقنية على التأليف والتدريس بالعربية، كملمح من ملامح مقاومة آثار الاحتلال الأجنبي، وإيمانا بأن الشخصية الوطنية لا تستكمل ملامح هويتها من دون التفكير باللسان القومي، وهو الأمر الذي لا يحصل من غير تعلم بهذا اللسان.

رابعا– إلحاح مفكري النهضة في المشرق والمغرب العربي جميعا على الدعوة إلى تعريب المصطلح، توصلا إلى تحقيق الذات في مواجهة ما كان من تيارات جارفة سعت إلى استلاب العقل والوجدان العربيين زمنا طويلا.

وقد تبدت العلامات الوطنية في التعامل مع مصطلحات العلوم الحديثة منذ وقت مبكر من عمر النهضة العربية الحديثة، ولعل أهم هذه العلامات تمثلت في العودة إلى مخزون اللغة العربية الوفير، وإعادة إحياء عدد من

تبدت العلامات الوطنية في التعامل مع مصطلحات العلوم الحديثة منذ وقت مبكر من عمر النهضة العربية

الألفاظ بعد تحميلها بالدلالات الجديدة المستحدثة، وهو ما يؤكده محمد سواعي في كتابه (أزمة المصطلح العربي في القرن التاسع عشر: مقدمة تاريخية عامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩م، ص ١٣١):«وتشمل الآليات التي استعملها الطهطاوي لاستنباط مفردات تعبر عن مواد وأفكار طارئة على المجتمع العربي في فترته.. إحياء المفردات العربية القديمة للدلالة على معان جديدة».

وهذه العودة إلى اللغة العربية معناها في النظر الواضح استبقاء الروح العربية حية بخصائصها النفسية والروحية والعقلية من خلال إعادة إحياء الألفاظ القديمة بعد تطويرها دلاليا.

وهذا الإحياء استبقى عددا من ملامح الحياة العربية المسكونة بالتصور الإسلامي للكون والحياة في الإدارة والتعليم، وسلوك الناس ومفاهيم التواصل... إلخ.

وقد وصل الأمر بعدد من الدارسين إلى أن يقرروا أن الثورة اللغوية المعاصرة في ميدان إغناء العربية بمصطلحات جديدة تحمل مواد وأفكارا ومفاهيم حضارية تولى التأسيس لها رفاعة الطهطاوي وغيره هي أقرب إلى الثورة اللغوية التي أحدثها الإسلام قديما وكان من نتائجها إغناء اللغة العربية بعدد وافر من المصطلحات، بما ارتبط بها من مفاهيم جديدة ترسخ للقيم الروحية والوجدانية والعقلية والإنسانية التي أرساها الدين الجديد يومها.

وهو الأمر الذي يؤكده مرة أخرى محمد سواعي قائلا (ص١٣١): «ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصحة إن زعمنا أن فترة الطهطاوي تمكن مقارنتها... في تاريخ اللغة العربية بالثورة الإسلامية في القرن السابع الميلادي التي أدخلت مفردات كثيرة إلى اللغة العربية، أو حددت معاني مفردات كانت تستعمل بمعان خاصة ومعينة في فترة ما قبل الإسلام، ليصبح استعمالها لدلالات معينة جديدة في الفترة الإسلامية».

وهذه الثورة الاصطلاحية المعاصرة المرتبطة بعمل الطهطاوي لا يمكن تصور مداها من دون تصور الأصول الفكرية والأجنبية التي سكنت عقل الرجل موصولة النسب بالإسلام وحضارته وتصوراته للحياة والكون معا.

(٥) المخاطر على الهوية تبدأ من العبث بأبنية المصطلحات

إن هذا الذي ظهر هنا عنوانا جانبيا يُدرك ما يقوله عندما نقول: إن المخاطر المحدقة بالهوية تبدأ تنزلاتها على أرض الواقع من نقطة العبث بخريطة المصطلح.

وفي هذا السبيل يصح أن نتأمل صنيع حركات الاحتلال الأجنبي للعالم العربي الإسلامي في مواجهة ملامح المقاومة لصنيعه بآليات ظاهرة تمثلت في واحد من أظهر أشكالها في تبديل المصطلحات العسكرية، فلقد ظلت الحياة العربية في مفتتح عصر النهضة الحديثة محافظة على ما ورثته من مصطلحات عسكرية من مثل:

– الجهاد – والجهادية.

– المجاهد.



-المرشد،والشيخ... إلى غير ذلك من مصطلحات هذا المجال الحيوي الخطير.

وقد وقف أكثر من رائد من رواد النهضة والإصلاح المعاصر أمام المخاطر الوافدة من هذا الباب.

وقد كان مالك بن نبي (ت ١٩٧٣م) واحدا من أكثر مفكري النهضة العربية المعاصرين إدراكا للمخاطر المترتبة على تفريغ عدد من المصطلحات من شحناتها العاطفية والحضارية التي تراكمت حول معانيها خلال قرون متطاولة كانت الفكرة الإسلامية هي الحاكمة والموجهة، ويركز على المخاطر هذه من خلال ما يتعلق بعدد من الاصطلاحات المؤثرة فيقول في كتابه (مشكلة الأفكار ص١٤٢): «وهكذا تحدث الناس بالتدرج عن (الجندي) الذي كان فيما مضى المجاهد».

والتوقف أمام الكلمتين وتحليل دلالة كل منهما يدرك منه أن كلمة الجندي وترسيخها كان عملا من ترسيخ الفرنسية في الجزائر والإنجليزية في مصر بعد الاحتلال، والكلمة التي تم إهدارها واغتيالها وهي (المجاهد) ارتبطت خلال تاريخها الطويل باستحدادها شحنات متدفقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، فتراث الأمة المسلمة في مواجهة العدو الغازي، فضلا عن الرصيد الدلالي الهائل الذي جمعته اللفظة المصطلح من دلالات الشرعية والقبول والتعاطف والتراحم مع من يمثلها، بالإضافة إلى الجزاء الأخروي والكرامة الدنيوية لمن يقوم بمعناها، كل تلك الشحنات الدلالية ثم اغتيالها عندما أزاحتها المفردة المترجمة (الجندي)!

ومثل ذلك يمكن ملاحظته فيما بين مصطلحي (المرشد أو الشيخ) في المجال الدلالي نفسه، وبين كلمة (كولونيل) بما هي نبت غريب الوجه واليد واللسان عن حضارتنا وديننا.

ومن الحق أن الحضارة الحديثة في الميدان العسكري في مصر تعيينا كانت بارة عندما أعادت وضع المصطلح العسكري، وتأمل باب ألقاب الرتب العسكرية لأفراد جيشها تجده دالًّا على حسن وعي جيل الرواد من قادة العسكرية المصرية بضرورة الوعي بعلاقة الهوية بالمصطلح، وهو الأمر الذي انعكس على عدد كبير من مصطلحات ألقاب رجال الجيش المصري وتكويناته لنلمح فيها المصطلحات التالية:

١- النقيب. ٢- الرائد. ٣- المقدم.
٤- السرية. ٥- اللواء.

وهذه المصطلحات العسكرية التي أوردها د.خالد فهمي في كتابه (كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، دار الشروق، القاهرة سنة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م ترجمة: شريف يونس، ص١٥) تظهر عليها فكرة إعادة إحياء ألفاظ إسلامية ضاربة بعمق في السيرة النبوية تعيينا، فالنقيب لقب تعود أصوله الأولى في الاستعمال لبيعة العقبة، والرائد تعود جذوره واستعمالاته لواحد من وظائف النبوة فيما ظهر من أن النبي ﷺ رائد لا يكذب أهله، والمقدم هو لفظ يتعلق بطبيعة التكوين والتشكيل للأفراد على الأرض، وبما هي رتبة دالة على شجاعة افتتاح المعارك.

وتأتي السرية علما ظاهر الاستعمال قديما فيما كان يعده النبي ﷺ من تكتلات وتجمعات لأهداف جهادية... إلخ.

ومن كل هذا ندرك إدراكا جليا وظاهرا أن الحضارة المعاصرة في هذا اللحظة الحرجة من تاريخ الأمة العربية، لاسيما وهي تفتتح صفحة جديدة من عمرها، يلزمها أن تنتج مصطلحاتها الحاملة لمفاهيم الوجود، ومعاني العلم، ودلالات المعرفة من رحم المئذنة لتستقيم لها هويتها وماهيتها.